

الدرس الأول/ رواية " الحمار الذهبي": لوكيوس أبوليوس

أولاً/ التعريف بالأديب: ولد (لوكيوس أبوليوس) أو (أبولاي)، أو (أفولاي) الامازيغي في أوائل القرن الثاني ميلادي حوالي (125م)، بمدينة "مداوروش" بولاية (سوق اهراس) بالجزائر، إبان الامتداد المسيحي ينتمي إلى قبيلة جدالة البربرية، وتوفي حوالي (170م). عاش في فترة الحكم الروماني، أين كانت مداوروش (سوق أهراس) "مداور" أزهى مستعمرات روما. وكان يعترف ويعتز بثقافته وهويته الأمازيغية، إذ كان يقول: >> لم يملكني في يوم من الأيام أي نوع من الشعور بالخجل من هويتي ووطني <<.

نشأ " أبوليوس" في أسرة أرستقراطية في مدينة "مداوروش"، وكان أشهر كتّاب ذلك العهد، درس بقرطاج واليونان (أثينا) وروما.. كان (أبوليوس) كاتباً مرموقاً ومسرحياً وشاعراً كبيراً في عصره، وقد عدّ مثلاً للشخصية الأمازيغية القوية في الأدب العالمي القديم، الذي تعلم كثيرا من اللغات، وألف كتّبا عديدة، وأبهر الرومان والإغريق إلى حد اتهامهم له بالسحر. بيد أنّ ثمة باحثين أدرجوه ضمن الأدباء اللاتينيين، ونزعوا عنه الهوية الأمازيغية، ومن بين هؤلاء " إيميل فاكيه" الذي أدرج " أبوليوس" ضمن اللاتين المقلدين للإغريق، فقال عنه >>.. أما (أبوليوس) في روايته الحمار الذهبي، فلا يعدو أن يكون روائياً هوائياً بالغ التعقيد شغوفاً بكل شيء، خاصة الأشياء الفريدة من نوعها، قويا ملياً وصوفياً في ساعاته، وجماع القول: إنّه مريبك جدا <<. ومنهم كذلك الدكتور (محمد غنيمي هلال)، عندما نص على تأثر القصة اللاتينية بالقصة اليونانية، >> وخير من يمثل هذا التأثير قصة المسوخ أو الحمار الذهبي التي ألفها " أبوليوس" في النصف الثاني من القرن الثاني بعد الميلاد، ولها أصل يوناني مجهول المؤلف <<. ويدرج المؤرخ الفرنسي "شارل أندري جوليان" المتخصص في أفريقيا الشمالية المبدع "أبوليوس" ضمن أدباء أفريقيا إذ قال: >> كان أبوليوس المولود حوالي سنة (125م) من أشهر الكتاب الأفارقة <<.

ثانياً/ ملخص رواية "الحمار الذهبي": وأطلقت على الرواية الغرائبية (الحمار الذهبي) تسميات عدة من بينها: المسخ، وقصة المسخ كما هو عند "حميد لحمداني"، أو الحمار الذهبي أو التحولات كما هو عند "عمار الجلاصي" أو الحمار الذهبي فحسب، كما لدى " أبو العيد دودو"، أو تحولات الجحش الذهبي، كما عند "علي فهمي خشيم". وتدور رواية " الحمار الذهبي" في مسخ الإنسان إلى حيوان (وهي ظاهرة في الآداب العالمية القديمة)، ثم عودته إلى حالته الأولى، وراوي هذه القصة هو " لوسيان" حيث حوّل البطل " لوكيوس" إلى (حمار) الذي سيعود إلى صورته الآدمية الأولى بعد مغامرات عدة. فإنّ رواية "الحمار الذهبي" ذات طابع ملحمي غريب، حيث تعتمد على فكرة المسخ وتحويل الكائن

البشري إلى حيوانات أو أشياء أخرى على غرار الإبداعات اليونانية. إذ يتحول "لوكيوس" في هذه الرواية إلى "حمار" بسبب خطأ حبيبته "فوتيس"، حينما ناولته مادة دهنية هي ملك سيدتها "بامفيليا" زوجة (ميلون) التي تمارس السحر في غرفتها السرية، وبهذه المادة يتحول الكائن البشري إلى أنواع من الطيور، والكائنات الخارقة التي تجمع بين الغرابة والتعجيب. وعندما سمع "لوكيوس" الشاب أسرار سحر هذه المرأة دفعه فضوله وتطفله إلى أن يأمر "فوتيس" بجلب دهن الساحرة ليجربه قصد التحول إلى طائر لينأى عن الناس، ويهاجر حيال عالم المثل، بعيدا عن عالم الفساد والرذيلة والانحطاط البشري. بيد أن "فوتيس" جلبت له مادة دهنية سامة تحول الإنسان إلى (حمار). وبعد مغامرات صعبة ذاق فيها "لوكيوس" أنواعا من العذاب والهلاك، وتعرف عبرها على مكائد البشر وحيلهم، يعود إلى حالته الأدمية الإنسانية الأولى بعد أن تدخلت الآلهة "إزييس" لتجعله راهبًا متعبداً وخادماً وفياً لها.

وبتعبير آخر، إن "لوكيوس" بطل القصة، اتجه نحو مدينة "تسالي" لأمر تخص أسرته، فنزل على (فتى) بخيل ضيقاً له، فكانت لذلك المضيف الشحيح امرأة ساحرة تتحول إلى أشكال مختلفة، إذا دهنت نفسها بأنواع من الزيوت الخاصة بالمسح والتحويل، فطلب "لوكيوس" من عشيقته "فوتيس" خادمة (بامفيليا) الساحرة أن تدهنه ليتحول إلى مخلوق آخر، بيد أنه تحول إلى (حمار)، بعدما أن أخطأت "فوتيس" في اختيار المحلول المناسب للمسح، وهكذا يتعرض (لوكيوس/الحمار) لكثير من العذاب، فظل أسيراً للمعاناة والتكليل والاضطهاد في أيدي الكثير من البشر بما فيهم اللصوص والرهبان، ولم يتحول إلى حالته الأولى إلا على يد كاهن يحرس معبد الآلهة "إزييس".

ويعبر تحوّل "لوكيوس" إلى (حمار) عن فكرة المسح الحيواني والعقاب القاسي لكل متطفل فضولي لم يرض برزقه وبشريته وإنسانيته، كما يحيل على ذلك الجزاء الذي يستحقه الزناة ومنحطو الأخلاق... ولن يعود البطل إلى حالته البشرية إلا بعد التوبة والدعاء باسم الآلهة والتخلص من نوازعه وانفعالاته البشرية العدوانية، وتدخل الآلهة "إزييس" لإنقاذه. وقد آل هذا التحول العجائبي إلى معنى رمزي يجسد انحطاط الإنسان ونزوله إلى مرتبة الحيوان حينما يستسلم لغرائزه وأهوائه الشبقية وانفعالاته الضالة، بيد أن النجاة في الرواية لن يتحقق سوى عن طريق المحن والابتلاءات والاختبارات المضنية والاستعانة بالتوبة واسترضاء الآلهة.

ثالثاً/ أهم القضايا والخصائص: إنّ رواية " الحمار الذهبي" قراءة ساخرة للمجتمع الروماني على جميع الأصعدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية. وتتجاوز هذه القراءة >> الوعي البشري وتنبؤ داخل النخباً وداخل اللاوعي، وينبغي قراءة (الحمار الذهبي) قراءة متأنية في سياق انهيار العقل

واضحلال المركزية الرومانية وتفككها، بحيث لم تعد روما هي معبد الثقافة، ولكنها انبجست أو بدأت تفعل ذلك تاركة مكانها لمناطق أخرى مثل أثينا».

1/ العجائبية والغرائبية: إن الرواية ذات طابع ملحمي وعجائبي، يتداخل فيها الواقع والخيال والسحر فهي تعتمد على فكرة المسخ. تحول الإنسان إلى حيوان، ثم عودته إلى حالته الأولى، ويتم ذلك بتدخل الآلهة لإنقاذ البشر من عملية المسخ.

2/ تبدو الرواية في رحلتها الفانطاستيكية - على الرغم من تعدد أجزائها - نصًا واقعيًا ساخرًا ينتقد العقل الظلامي وتُسقِّه سلوكيات السحرة والقضاء الروماني الذين اتهموا " لكيوس " بالسحر والشعوذة، ومن هنا فالرواية إعلان لانهايار الإمبراطورية الرومانية، وتفككها وفسادها أخلاقياً، وهي تجسد انحطاطاً إنسانياً ونزوله إلى مرتبة الحيوان، حينما يستسلم لغرائزه وأهوائه، وانفعالاته الضالة، ويكمن النجاة في التوبة والدعاء باسم الآلهة.

3/ كما تتميز بروعة الوصف وبراعة الأسلوب، والإكثار من الإحالات والمستنتجات التناسية، وتشغيل الخطابات الدينية والأدبية والفلسفية والصوفية والأسطورية... .

4/ وتقترب الرواية من خلال خصائصها الفنية والبلاغية من أصلها الملحمي الشعري >> فالقاص ينهج منهج الشاعر في نزعته إلى الواقع، والقاص والشاعر كلاهما كان يتخيل، وصف ما يتخيل و يصف ما يتخيل أيسر مما يصف الواقع ويواجهه، وكانت الجماهير في عصور الإنسانية الأولى تهتم بالأحداث العجائبية وبالأخطار الخيالية، على حين لا تعبأ بالواقع، ولا تحفل به.<<